أهم أعمال خليفة رسول الله

عندما تولى أبو بكر الخلافة كانت دولة الإسلام قد تمَّ تأسيسها على يد النبي في المدينة المنورة دولة لها حدود ودستور وأهل شورى وقضاء وجيش وسفراء وحروب ومعاهدات ، وكان لأبي بكر الصديق دور عظيم في حياة النبي وبعده في تأسيس دولة الإسلام وفي ذلك يقول العقاد : " ولم يزل في كل أعماله منذ أن أسلم إلى أن تولى الخلافة مؤسساً لهذا البناء الشامخ الذي كان هو أول من قام عليه بعد بانيه . فالدعوة الصريحة إلى الإسلام في المسجد بمسمع قريش ، والهجرة مع النبي من داره ، وبذل المال في البعوث وغير البعوث ، وتيسير القدوة للمقتدين بإسراعه إلى التلبية والتصديق كلما التبس الأمر واضطربت الأفكار ، ومحاربته قريشاً بعلمه واطلاعه على الأنساب كما حاربهم بماله وسلاحه ومشورته ورأيه – بل كل ما عمل منذ أسلم إلى أن تولى الخلافة ، فهو في جملته ركن من أركان الدولة الإسلامية يجعله بالحق مؤسساً لها مشاركاً في بنائها ، بسلطان العقيدة قبل سلطان الحكومة والكلمة .

ثم كانت البيعة بالخلافة ..

وكانت بعثة أسامة بن زيد ، وكانت حروب الردة ، وكانت بعوث العراق والشام ، فقام على هذه المآثر الثلاث التي لا يقضي حقها من الإكبار كل ما قام بعد ذلك من بناء ." [1]

(١)عباس محمود العقاد " عبقرية الصديق " مرجع سابق ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

قصة الردة

توفي النبي ﷺ وكان هناك كثير من الأعراب الذين قالوا آمنا ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٤] فظن كثير من هؤلاء الأعراب إن بموت النبي ﷺ انفرط عقد الإسلام فارتدوا ظناً منهم إنه لم يعد للإسلام قوة تحميه ، ولكن الله تعالى لم يكن لضيع الدين الذي ارتضاه للناس فقيض أبو بكر ليئد هذه الفتنة العظيمة كما وأد فتنة اختيار الخليفة الأول .

وفي الصّحيح عن أبي هريرة قال: " لَمّا تُوُفِّي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر، وكفر مَن كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل النّاسَ، وقد قال رسول الله ﷺ : أُمِرْتُ أن أقاتل النّاسَ حتى يقولوا: لا إله إلاّ الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلاّ بحقّها؟ فقال أبو بكر: فإنّ الزّكاة من حقّها. والله لأقاتلَنَّ مَن فرّق بين الصّلاة والزّكاة، والله لو منعوني عنَاقاً كانوا يؤدّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فما هو إلاّ أن رأيتُ الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفتُ أنّه الحقّ. قال عمر: والله لرجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمّة جميعاً في قتال أهل الرّدّة ".

وذكر يعقوب بن سعيد بن عبيد، ومحمّد بن مسلم بن شهاب الزّهري عن جماعة قالوا: " كان أبو بكر أمير الشّاكرين: الذين ثبتوا على دينهم وأمير الصّابرين: الذين صبروا على جهاد عدوّهم ـ وهم أهل الرّدّة ـ وذلك: أنّ العرب افترقت في ردّتها، فقالت فرقة: لو كان نبيّاً ما مات، وقالت فرقة: انقضت النّبوّة بموته فلا نطيع أحداً بعده. وفي ذلك يقول قائلهم:

أطعنا رسولَ الله ما كان بيننا ... فيا لعباد الله، ما لأبي بكر؟
أيورثها بكراً إذا مات بعده ... فتلك لعمر الله قاصمة الظّهر

وقالت فرقة: نؤمن بالله. وقال بعضهم: نؤمن بالله، ونشهد أنّ محمّداً رسول الله، ولكن لا نعطيكم أموالنا.

فجادل الصّحابة أبا بكر وقالوا: احبس جيش أُسامة، فيكون أماناً بالمدينة، وأُرفق بالعرب حتى يتفرج هذا الأمر. فلو أنّ طائفة ارتدّت، قلنا: قاتل بِمَن معك مَن ارتدّ. وقد أصفقت العرب على الارتداد. وقدم على أبي بكر عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس في رجالٍ من أشراف العرب، فدخلوا على رجالٍ من المهاجرين، فقالوا: إنّه قد ارتدّ عامة من وراءنا عن الإسلام، وليس في أنفسهم أن يؤدّوا إليكم

ما كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ فإن تجعلوا لنا جُعلاً كفيناكم. فدخل الصّحابة على أبي بكر، فعرضوا عليه ذلك. وقالوا: نرى أن تطعم الأقرع وعيينة طُعْمةً يرضيان بها، ويكفيانك مَن وراءهما، حتى يرجع إلينا أُسامة وجيشه، ويشتدّ أمرك، فإنّا اليوم قليل في كثيرٍ.

فقال أبو بكر: فهل ترون غير ذلك؟

فقالوا: لا.

قال: قد علمتم أنَّ مَن عهد نبيّكم إليكم: المشورة فيما لم يمض فيه أمر من نبيّكم، ولا نزل به الكتاب عليكم، وأنا رجل منكم، تنظرون فيما أشير به عليكم. وإنّ الله لن يجمعكم على ضلالةٍ؛ فتجتمعون على الرّشد في ذلك.

فأمّا أنا: فأرى أن ننبذ إلى عدوّنا، فمَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر، وألاَّ ترشون على الإسلام، فنجاهد عدوّه كما جاهدهم. والله لو منعوني

عقالاً لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه. وأما قدوم عيينة وأصحابه إليكم فهذا أمر لم يغب عنه عيينة، هو راضيه، ثم جاءوا له. ولو رأوا ذباب السّيف لعادوا إلى ما خرجوا منه، أو أفناهم السّيف، فإلى النّار. قتلناهم على حقّ منعوه وكفر اتّبعوه، فبان للنّاس أمرهم.

فقالوا له: أنتَ أفضلنا رأياً، ورأينا لرأيك تبع.

فأمر أبو بكر النّاس بالتّجهّز، وأجمع على المسير بنفسه."

أي رجل يمكن أن يتخذ مثل هذا القرار الخطير بل في غاية الخطورة ينفذ جيش أسامة وفيه خير جنود المسلمين في الوقت الذي ارتدَّ فيه معظم العرب ، ويرفض أن يهادنهم حتى تمرَّ العاصفة إنه حق اليقين في الله تعالى ومنزلة الصديقية التي لم يبلغها سوى الصديق .

قتال أهل الردة

ولَمّا كان من العرب ما كان، ومنع مَن منع منهم الصّدقة، جد بأبي بكر الجد في قتالهم، وأراه الله رشده فيهم، وعزم على الخروج بنفسه، فخرج في مائة من المهاجرين والأنصار، وخالد يحمل اللّواء، حتى نزل بقعاء، يريد أن يتلاحق النّاس، ويكون أسرع لخروجهم، ووكل بالنّاس محمّد بن مسلمة يستحثّهم، وأقام ببقعاء ينتظر النّاس، ولم يبقَ أحد من المهاجرين والأنصار إلاّ خرج.

فقال عمر: " ارجع يا خليفة رسول الله، تكن للمسلمين فئة، فإنّك إن تقتل يرتدّ النّاس، ويعلو الباطلُ الحقَّ ".

فدعا زيد بن الخطاب ليستخلفه، فقال: قد كنتُ أرجو أن أرزق الشّهادة مع رسول الله ﷺ فلم أرزقها، وأنا أرجو أن أرزقها في هذا الوجه. وإنّ أمير الجيش لا ينبغي أن يباشر القتال بنفسه.

فدعا أبا حذيفة بن عتبة، فعرض عليه ذلك، فقال مثلما قال زيد. فدعا سالماً مولى أبي حذيفة، فأبى عليه. فدعا خالداً فأمّره على النّاس، وكتب معه هذا الكتاب:

" بسم الله الرّحمن الرّحيم.

هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى خالد بن الوليد، حين بعثه لقتال مَن رجع عن الإسلام إلى ضلالة الجاهلية، وأماني الشّيطان. وأمره: أن يبيّن لهم الذي لهم في الإسلام والذي عليهم. ويحرص على هداهم. فمَن أجابه قبل منه، وإنّما يقاتل مَن كفر بالله على الإيمان بالله. فإذا أجاب إلى الإيمان، وصدق إيمانه لم يكن له عليه سبيل. وكان الله حسيبه بعد في عمله، ولا يقبل من أحدٍ شيئاً أعطاه إيّاه إلاّ الإسلام، والدّخول فيه، والصّبر به وعليه، ولا يدخل في أصحابه حشوا من النّاس، حتى يعرف علامَ اتبعوه، وقاتلوا معه؟ فإنّي أخشى أن يكون معكم ناس يتعوذون بكم، ليسوا منكم، ولا على دينكم، فيكونون عوناً عليكم. وأرفق بالمسلمين في مسيرهم ومنازلهم، وتفقّدهم، ولا تُعَجِّل بعض النّاس عن بعضٍ في المسير، ولا في الارتحال، واستوص بِمَن معك من الأنصار خيراً؛ فإنّ فيهم ضيقاً ومرارة وزَعارة، ولهم حقّ وفضيلة وسابقة ووصية من رسول الله ﷺ. فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم" .

وعن عروة بن الزّبير قال: " جعل أبو بكر يوصي خالداً، ويقول: عليك بتقوى الله، والرّفق بِمَن معك؛ فإنّ معك أهل السّابقة من المهاجرين والأنصار. فشاورهم، ثم لا تخالفهم. وقدم أمامك الطّلائع تَرْتَدْ لك المنازل، وسِرْ في أصحابك على تعبئةٍ جيّدةٍ؛ فإن أعطاك الله الظّفر على أهل اليمامة، فأقِلَّ البُقْيا عليهم ـ إن شاء الله ـ وإيّاك أن تلقاني غداً بما يضيق به صدري منك. اسمع عهدي ووصيّتي، ولا تُغِيرن على دار سمعت فيا أذاناً، حتى تعلم ما هم عليه .

واعلم أنّ الله يعلم من سريرتك ما يعلم من علانيتك. واعلم أنّ رعيتك تعمل بما تراك تعمل .

تعاهد جيشك، وانْهَهُم عما لا يصلح لهم. فإنّما تقاتلون مَن تقاتلون بأعمالكم، وبهذا نرجو لكم النّصر على أعدائكم، سِر على بركة الله تعالى ."

ووأد أبو بكر بقوة إيمانه ومضاء عزمه فتنة الردة وعاد العرب إلى الإسلام ولمَّ أبو بكر شعث جزيرة العرب، وما كان دهى من أمر أهلها، وعاد الحق إلى نصابه، جهز الجيوش يمنة ويسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس، وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم، ففتح الله لهم ومكَّن لهم وبهم، وملكهم نواصي أعدائهم.

إنفاذ جيش أسامة

رغم فتنة المرتدين وخطر ذلك على دولة الإسلام الوليدة إلا أن أبا بكر أبى إلا أن ينفذ جيش أسامة الذي أعدَّه النبي ﷺ .

عسكر أُسامة بن زيد بجيشه في الجرف، الذي كان بمثابة قاعدة عسكرية للمسلمين وبخاصّة للجيوش المنطلقة إلى شمال المدينة.

وبلغ الاهتمام من رسول الله ﷺ لبعث تلك السرية، أنّه صار يُردد وهو في الرمق الأخير " انفذوا جيش أُسامة، انفذوا جيش أُسامة " .

وذلك يدل على الأهمية القصوى، والاستراتيجية التي كان يُمَثِّلها إرسال ذلك الجيش بالنسبة للمسلمين، وهو الأمر الذي حدا بالصّدِّيق رغم المخاطر التي كانت تُحيط بالمسلمين داخلياً وخارجياً، أن يُسارع في بعث السرية، ويُصرّ على ذلك رغم معارضة كبار الصحابة له.

وتوفي النبي ﷺ وأسامة معسكرٌ بجيشه في الجرف، وذُهِل المسلمون في المدينة.

"ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة، ودخل بريدة بن الحصيب بلواء أُسامة معقوداً حتّى أتى باب رسول فغرزه عنده فلمّا بويع لأبي بكر أمر بريدة أن يذهب باللواء إلى بيت أُسامة، وألاّ يُحِلَّه أبداً حتّى يغزوهم أُسامة"

ودخل قائد الجيش على الخليفة أبي بكر الصّدِّيق فقال: "إنّ رسول الله ﷺ بعثني وأنا على غير حالكم هذه، وأنا أتخوَّف أن تكفر العرب، فإن كفرت كانوا أوّل من يُقاتَل، وإن لم تكفر مضيت، فإنّ معي سروات النّاس وخيارهم".

وكما توقّع القائد الذّكيّ، فما أن سَمِع الناس بوفاة النّبيّ ﷺ حتّى:

ارتدّت العرب إمّا عامّة وإمّا خاصّة في كلّ قبيلة، ونجم النفاق، واشرأبت اليهود والنصارى، والمسلمون كالغنم الشاتية لفقد نبيّهم ﷺ وقلّتهم، وكثرة عدوّهم .

واجتمع كبار أصحاب رسول الله ﷺ إلى الخليفة فقالوا:

"يا خليفة رسول الله! إنّ العرب قد انتقضت عليك من كلّ جانب، وإنّك لا تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئاً، اجعلهم عدّة لأهل الردّة، ترمي بهم في نحورهم! وأخرى، لا نأمن على أهل المدينة أن يُغار عليها وفيها الذراري والنساء، فلو استأنيت لغزو الروم حتّى يضرب الإسلام بجرانه١، وتعود الرّدّة إلى ما خرجوا منه أو يفنيهم السيف، ثُمَّ تبعث أُسامة حينئذٍ فنحن نأمن الروم أن تزحف إلينا، فلمّا استوعب أبو بكر رضي الله عنه كلامهم، قال: هل منكم أحدٌ يريد أن يقول شيئاً؟ قالوا: لا. قد سمعت مقالتنا. فقال: والذي نفسي بيده، لو ظننت أنّ السباع تأكلني بالمدينة لأنفذت هذا البعث، ولا بدأت بأوّل منه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينْزل عليه الوحي من السماء يقول: أنفذوا

جيش أُسامة! ولكن خصلة أُكَلِّم أُسامة في عمر يخلفه يقيم عندنا، فإنّه لا غناء بنا عنه. والله ما أدري يفعل أُسامة أم لا، والله إن رأى لا أُكْرِهُهُ! فعرف القوم أنّ أبا بكر قد عزم على إنفاذ بعث أُسامة، ومشى أبو بكر إلى أُسامة في بيته وكلّمه أن يترك عمر، ففعل أُسامة، وجعل يقول له: أذنت ونفسك طيبة؟ فقال أُسامة: نعم. وخرج وأمر مناديه ينادي: عزمة مني ألاّ يتخلّف عن أُسامة من بَعْثِه من كان انتدب معه في حياة رسول الله ﷺ فإنّي لن أوتى بأحدٍ أبطأ عن الخروج معه إلاّ ألحقته به ماشياً .

واجتمع من حول المدينة من القبائل التي غابت في عام الحديبية، وخرجوا، وخرج أهل المدينة في جند أُسامة، فحبس أبو بكر مَن بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم، فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل".

وتوجَّه الخليفة الصّدِّيق نحو معسكر الجيش حتّى أتاهم فأشخصهم وشيَّعهم وهو ماشٍ وأُسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابّة أبي بكر، فقال له أُسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلنّ! فقال: والله لا تنْزل، ووالله لا أركب! وما عليَّ أن أُغَبّر قدميَّ في سبيل الله ساعة ".

فسار أسامة بجيشه حتى بلغوا تخوم البلقاء من أرض الشام حيث قتل أبوه زيد وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة فأغار على تلك البلاد وغنم وسبى وكر راجعا سالما مؤيدا بعد أن أمن حدود دولة الإسلام من قبل الشام وربما إن لم يفعل ذلك لهاجم الفرس والروم وحلفاؤهم المسلمين زمن فتنة الردة ولكنه بدأهم وقضى على أحلامهم.

هذا هو الصديق الذي رأى ببصيرته النافذة الحق وأمضاه بعزيمته الصلبة وإذا اجتمع نفاذ البصيرة ومضاء العزم في حاكم إلا كان النصر حليفه .

يقول العقاد : " بعثة أسامة كانت العنوان الأول لسياسة عامة في الدولة الإسلامية هي في ذلك الحين خير السياسات .

كان قِوامها كله طاعة ما أمر به رسول الله .

وكانت الطاعة – جد الطاعة – مناط السلامة وعصمة المعتصمين من الخطأ الأكبر في ذلك الحين .

وحيث يكون التمرد هو الخطأ الأكبر فالطاعة – بل الطاعة الصارمة – هي العصمة التي ليس من ورائها اعتصام .

وكان التمرد هو الخطر الأكبر في ذلك الحين لا مِراء .

كان النفاق يطلع رأسه في مكة والمدينة ، وكانت القبائل البادية تتسابق إلى الردة في أنحاء الجزيرة ، وكان جند أسامة نفسه يودُّ لو استبدل به أميراً غيره ، وكان أسامة أول من يشك في طاعة القوم إياه ويترقب أن يخلفه على البعثة أمير سواه .

تمرد ، أو نذير بتمرد في كل مكان .

وطاعة واجبة هنا حيث نبع التمرد ، أو لا سبيل إلى واجب بعد ذلك يُطاع .

طاعة أو لا شيء .

فإن بقيت الطاعة فقد بقي كل شيء .

وهنا تسعف الصديق طبيعة هي أعمق الطبائع فيه ، أو هي العبقرية الصديقيَّة في أوانها ، وعلى أحسن حال تكون .

هنا تسعفه القدوة القويمة بالبطل المحبوب .

وهنا يقول وقد خوفوه الخطر على المدينة والجيش يفارقها :

" والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ولو أن الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة ... " (١)

---

(١)عباس محمود العقاد " عبقرية الصديق " مرجع سابق ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

ونحن نتفق مع العقاد في وجوب أنفاذ جيش أسامة للأسباب التي ذكرها ولكن نعود ونذكِّر أننا نختلف معه في علاقة أبي بكر بالنبي فهو يقول " هنا تسعفه القدوة القويمة بالبطل المحبوب " ونحن نقول وهنا تملي عليه صديقيته الاقتداء والتأسي بالنبي الحق المعصوم المحبوب ، فأبو بكر لم يكن مفتونا ببطولة بطل أحبه فاقتدي به إنما كان مؤمناً بنبي بعثه الله برسالة لذا وجب عليه أن يطيعه ويقتدي به .

نتائج بعثة أسامة

ولقد أدرك الناس في عصر أبي بكر صواب رأيه في إنفاذ تلك البعثة بعد إنفاذها وعودتها ؛ فشاع في الجزيرة العربية خبرها ، وروى مؤرخو تلك الفترة أنها كانت لا تمر بقبيل يريدون الارتداد إلا تخوفوا وسكنوا : وقالوا فيما بينهم : لو لم يكن المسلمون على قوة لما خرج من عندهم هؤلاء .

فإذا كان بقاء أسامة بالمدينة جائزاً لدفع خطر ، فإرساله كذلك جائز لدفع خطر مثله ، وفازت الدولة بين هذا وذاك بدرس الطاعة وهو يومئذ ألزم الدروس .

ثم تكرر هذا الدرس في أوسع نطاق الدولة الإسلامية كلها في ذلك الحين ، وجاءت حروب الردة التي هي مفخرة أبي بكر الكبرى غير مدافع ، او هي مفخرته الخاصة التي انفرد بها في تاريخ الدعوة الإسلامية بغير شريك .

الصدِّيق الذي آمن ببشارة النصر ولو كره الكافرون ، كما آمن من قبل بانتصار الروم على الفُرس بعد بشارة القرآن الكريم فخاطر على ذلك بالمال والميثاق ، ولم يخامره الشك لحظة أنه رابح لا محالة في

ذلك [١] وكذلك غضب في حرب الردة غضبة الواثق من الحق ، الواثق من الغلبة ، الواثق من العاقبة ؛ لأنه سمع البشارة السماوية لينصرن الله الإسلام على الدين كله ، فإذا حارب في سبيل الإسلام فهو لا محالة على حق وهو لا محالة منصور . [٢]

فإذا كانت فتنة الردة قد كشفت عن زيغ الزائغين وريبة المرتابين فهي قد كشفت كذلك عن الإيمان المتين والفداء السمح واليقين المبين فحفظت للناس نماذج للصبر والشجاعة والإيثار والحمية تشرق بها صفحات الأديان . [٣]

وهكذا قُدِّر للخليفة الأول أن تتوطد على يديه دعائم الدولة الإسلامية الناشئة في سياستها الداخلية وسياسيتها الخارجية ، فما صنعه فقد استمر فيه على خطة النبي ﷺ وما صنعه الذين لحقوا به فإنما هو نتيجة لازمة .

ولا ريب أن يقين الصدِّيق بنصرة الإسلام على الدين كله في يوم من الأيام قد كان أقوى يقين سكن في قلب إنسان أو سكن إليه قلب إنسان.

---

(١) عن عبد الله بن عباس في قوله تعالى : ﴿الم *غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ﴾ [الرُّوم:١-٤] قال :غلبت وغلبت. قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ؛ لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب ، فذكر ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله فقال رسول الله" : أما إنهم سيغلبون" فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا. فجعل أجلا خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال: "ألا جعلتها إلى دون" أراه قال: "العشر" . قال سعيد بن جبير: البضع ما دون العشر. ثم ظهرت الروم بعد " [رواه أحمد]

(٢)عباس محمود العقاد " عبقرية الصديق " مرجع سابق ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(٣)عباس محمود العقاد " عبقرية الصديق " مرجع سابق ص ٣٠٩ .

فكل وعد من عود القرآن قد كان عنده حقيقة عيان ، بل أمكن من حقيقة العيان ، وهذه هي منزلة الصديقية التي بلغها أبو بكر وهذه دلائلها وآثارها .

جمع القرآن الكريم

وكما ساهم أبو بكر في تأسيس دولة الإسلام واستكمال مقوماتها وحفظها بوأده فتنة الردة حفظ الله تعالى به الدين حفظ به كتاب الله تعالى حفظ به دستور المسلمين .

عن زيد بن ثابت قال : " أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فأتيته فإذا عمر جالس عنده قال أبو بكر : إن عمر جاءني فقال : إن القتل قد استحر (اشتد) يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى إن استحر القتل بالقراء في المواطن كلها ، فيذهب قرآن كثير ، وإني أرى أن نجمع القرآن ، فقلت لعمر : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني في ذلك . حتى شرح الله صدري للذي شرح صدره ، ورأيت في ذلك الذي رآه . فقال أبو بكر لزيد بن ثابت : إنك رجل شاب عاقل ، لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن ، فاجمعه . قال زيد : فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمروني به من جمع القرآن قال : قلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح صدر أبي بكر وعمر . قال : فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع (جمع رُقعة وهي قطعة من الورق أو الجلد يُكتب فيها) والعسب واللخاف (جمع لخفة وهي حجارة بيض رقاق) ، وصدور الرجال ، فكانت الصحف عند أبي بكر حياته ، حتى توفاه الله ، ثم عند عمر ، حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر " .

يقول العقاد : " فخلاصة ما يقال في سياسة الصديق للدولة الإسلامية على عهده أنها كانت سياسة المقتدي المقتدر الفعَّال الذي يصغي إلى النصح ممن يرون التصرف والتمييز والابتداء ، ولم يكن قط مقتدياً على ضعف وتواكل وإلقاء التبعة على غيره ، بل ربما اقتدى ليعمل ما هو أصعب وأعضل وانهض بالتبعة من أعمال المتصرفين"(١)

لم يكن أبو بكر نصي حرفي ينفذ ما قاله الله ورسوله دون تدبر وروية واستشارة أهل الحل والعقد ، ودون فقه الواقع وأحوال الناس إنما كان رجل يستطيع أن يفرق بين النصوص قطعية الثبوت والدلالة التي لا اجتهاد معها ، وبين ظنية الثبوت أو الدلالة التي يستشير الناس فيها وينزل على الرأي الصواب وإن خالف رأيه كما تعلَّم ذلك من النبي ﷺ الذي نزل على رأي الْحُبَابَ بْنَ الْمُنْذِرِ في غزوة بدر ونزل على رأي السعدين في غزوة الخندق ، كذلك نزل أبو بكر على رأي عمر في جمع القرآن بعدما تدبر الأمر وشرح الله صدره له ، وهذا هو الأهم شرح الصدر فالله تعالى يقول ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

فالذين بذلوا جهدهم في سبيل إعلاء دين الله تعالى ، وقدموا أنفسهم وأموالهم في سبيل رضائه وطاعته ، وأخلصوا له العبادة والطاعة ، فإن الله تعالى لن يتخلَّى عنهم ، بل سنهديهم إلى الطريق المستقيم ، ويجعل العاقبة الطيبة لهم ، فقد اقتضت رحمة الله تعالى وحكمته أن يكون مع المحسنين في أقوالهم وفى أفعالهم ، وأن يهيأ لهم البطانة الصالحة ، وتلك سنته تعالى التي لا تتخلف ولا تتبدل .

***

(1) عباس محمود العقاد " عبقرية الصديق " مرجع سابق ص ٣٣٣ .